حيايا المرأة

كلمته . . رد عليها بصدى صمته . . عزفت له بأناملها لحن الوجود على يده . . سحب يده . وغنى لها نشيد العدم . . قطفت ابتسامة وأهدتها له بشفتيها . . نزع أوراقها وداسها بقدميه . . وجرى منها . . فجرت وراءه . . وطاردته بحقدها لتشق عليل وحشتها . . فهو رجلها وأنسها . . فراوغها وزاغ منها . . فوحشته هي أنثاه وأنسه . . فتشاجرت مع ظلها . . فسحق الحب مقاومته . وأشفق عليها . . وودع أنس وحشته . وارتمى فى وحشة أنسها . . يغل ما بعده غل .

ليليات

بعد ثلاثة شهور زواج فسحرت سونيا من حياتها فى الريف مع زوجها . فأخذ هاليون تولستوى إلى موسكو . . واستمرت معاركه حبيبا الضارية . ومعها تبادل لبنان العنف . . وكلما زاد من شدة القتال ولعها بالخليقة . . فقد صبح كل منهما للآخر بقراط يومياته ليعرفه على حقيقته . خباياه ودقائقه . والحياة الزوجية مجاملة . والخليقة لا تقبل المجاملات . . وتعذب تولستوى من صدق زوجته . وتعذبت سونيا من صدقه . وتعاركا بصدق . وتصالحا بصدق . ثم فسحرت سونيا من موسكو . والتفت إلى الريف . حيث يعيش زوجها لها ومعها . بعيدا عن أصدقائه وشرهم . كما ذكرت فى الأسبوع الماضى .

كلمة الحياة

وعاد تولستوى وسونيا إلى عزلتهما فى أوائل فبراير . وعشت سونيا فوق تراب الأيام بفخر وذل . وأمل وخوف . . فهى لم تعد لها بلا هم . وبدا يسيل بحيرة . فى أحشائها حين تريده ولا تريده . تريده لأنه زهرة الحب الزواجى . ولا تريده لأنه فيروس الحب الجنسى . . وهى تلومه لأنه تسلل إليها بلا رغبة منها . وبصمت دفين بأنوار الفجر احتل احتلاها . وسبح فى نهر ليله فوق أمواج حياتها . وبلا إذن منها التصق بلحمها . وارتوى من دمها . . وفى أول الأمر ثارت عليه بكل جسدها . وتمردت على تطفله عليها . إلى حد العياذ والقئ . . ولكنه تشبث بها بقوة وجلبه . وتكوم بداخلها . وجثم مطبقا على حلم نحيل . وتوسلت إليه أن يرحمها من حمله الثقيل . . فسمعها وسكت . وظاهر بالبكم . . فهو يعرف أنها رغم صوتها القطع لا تستطيع أن تسف صمته . . فازداد التصاقا بها . . فازداد تشبثه بها . . فهو يعرف أنها لحمه ودمه . . ويعرف أن البغض اسم من أسماء الحب العديدة . ويعرف أنها تبغضه لأنه يحبها كما هى نسجه . وخلقها كما هى تخلقه . ويراها كما لن ترى أبدا نفسها . ويعرف أن أكثر ما يعيقها فيه . أن له أذنين قويتين . يسمع بهما ما تقوله قبل أن تقوله . ويشرب بهما أفكارها وخواطرها . ويلتقط بأبصارها رعشاتها المكبوتة فى بنبوعها . . فهو يعيش بها ومعها . على إيقاع أنفاسها . وأنغام أحزانها وأفراحها . وآمالها وآمالها . . فى حين تجهل هى كل شىء عنه . فهو قريب منها بل جزء منها . وفى ذات الوقت بعيد عنها . يبنه وبينها هوة الليل الأول وظلماته . وهو يعرف أنها لحمه لأنه أول بذرة فى أرضها . وأول زهرة فى بستانها . وأول كلمة تكتبها شفتاها ودمها . . وهى كتبت هذه الكلمة حرفا حرفا بلغة قديمة قدم الحياة ذاتها . وتجددة كالحياة ذاتها . وحية كالحياة ذاتها . لأنها الحياة ذاتها . . والآن عليها أن تعلم كيف تفك خطوط هذه الكلمة وتقرأها . ولأنها لحمه تعلمه أن يحب أمومتها . ويزيل جهالتها . فهو عالم الأجنة . يعرف كل حنين أن أول واجباته أن يزرع فى قلوب الأمومة فى دم أنيه . لأنها لا تولد بها . ثم يزرك شجرتها لتنمو وتترعرع وتزدهر منه . ليلتقط هو ثمارها اللا نهائية . ويلتهمها . ولا يشبع منها أكل حنا وحنانا .

واستسلمت سونيا على مضض لحب جنينها لها وللحياة . وتركت جسدها يتحدث مع نفسه . ويحكى لنفسه قصة معجزة الحياة . وانتظرت بقلق وتلهف نهاية فصل الليل وبداية فصل النهار . وتركت الزمن يسيل برتابة من غير أن تفعل شيئا سوى النظر إلى الأشجار . وهى تتوسل بأغصانها العارية إلى الربيع ليبشر عليها . ويكسوها بأوراقه الخضراء .

وتولستوى يرى ويسمع . ويحس ويفعل بقلبات الطبيعة وإذا فتح سحابة بيضاء بيا بلع يمسحبة فهو يغسل بها عينيه . وإذا قذفته شمس الغروب بألف ظل وضوء . فهو يرتمى تحت أشعتها . ويتمرغ فوق تجيل الشفق . وإذا هبت الرياح الشمالية وصفعته على وجنتيه . فهو يلتهم بشفتيه نفحات بردها . وإذا اخضرت الأرض تبختر فوقها كالطاووس . وطاف بأفراحه ألوانها الزاهية . وشبع بألبابه عطرها الشهى . . وانتشى ثم أكل سونيا بحالة الأخضر . . وكلما سكر حبا مع زوجته يطر منه قلمه . ويشرب زجاجة حبر . ويرتمى فوق الورق . ويقفزه ويدوح بأسراره ويكتب :

« أول مارس ١٨٩٣ . سعادتنا وهنية إلى حد أننا من شدة رضا جلوسا اليوم على ركبنا وصليا . . ثم بعد أسابيع ترتج قلمه من السكر من جديد . وكتب

« ٢٤ مارس ١٨٩٣ . أحبها أكثر فأكثر . اليوم . وبعد مرور ستة شهور على زواجنا . أحس وأنا معها بالخشوع . لا أعرف كيف أصفها . فهى فوق كل وصف . . إنها عبقرية وطاهرة ونقية . . إنها ما زالت فى نظرى ، العذراء ، بالمعنى العميق والخارق لهذه الكلمة . أحس أنى لا أمتلكها وهم أنها تهب نفسها لى . ورغما لا أمتلكها لأنى لا أجرؤ على أن أمتلكها . ولأنى غير جدير بها . إنى شديد العصبية . ولذلك فسعادتى غير كاملة . هناك شىء يطغينى . إنى أغار من الرجل الذى يستأهلها . أو لا يستحقها .

ثم مرت نوبة النشوة . وألقى قلمه السكران . ونصحا وقرك جنبه . ولأهب للنقاش . إن أصدقاءه عابروه الثناء وجوده فى موسكو على تفرغه لإدارة شئون ضيعته وإهماله للأدب . مما أدى إلى إصابة قلمه المحبوب بالعظم . وفكر تولستوى فى أن يكتب قصة أستاذ جامعى درسى لنيوت ميكروبات الفكر الغربى بحد . أو قصة زوج يقدس الحياة الأسرية فى حين لا تهم زوجته سوى الأزياء والرقص ومشاهير الطبقة العابرة . ولكن قلمه لم يتحمس لا للفكرة الأولى ولا للثانية . ففكر تولستوى فى كتابة قصة طويلة يروى فيها حكاية حصان مع الزمان . ومن خلال توغله فى النفس الحيوانية يسلط الضوء على حرية الكائن الحى . وحقوق السيد على العبد . والظلم الكامن فى فكرة الملكية . وحتمية نهاية كل حى .

وراقت الفكرة للقلم . فشجع تولستوى وسجلها . « تولستوى » بطل الرواية حصان أبلق . الشعر فى ذنبه الحيل بنور خلقه وذكائه الحاد . ورغم هذا فهو فيها عصر عنه لا يفهم أبدا كيف إن كائنا آخر حيا مثله ، يجبره ملكه . إن كلمة ، حصان ، التى تقال عنه هو الحصان الحى . تبدو له غريبة تماما ككلمات ، أرض ، و ، هواء ، و ، زمان ، إن الرجال أمرهم عجيب حقا . لقد

نادرا فيما يبدو على أن نفس الشيء لا يمكن أن يقول عنه مرتين شخصان واحد عبارة ، ممكن أنا ، وتنطبق هذا الاتفاق ، فمن يقول : ممكن أنا ، لأكثر عدد من الأشياء يكون أسعد الرجال . . والحصان يرى أن كل حق الله ملك له وحده ، ويتعذب من استعباد صاحبه له . وبعد حياة طويلة من الكد والعمل والجري والشقاء ، يموت الحصان من غير أن تخلق أمثلا واحدا من أمثاله ، ولكنه كان أفاد الغير في حياته . أفادهم أيضا بعد موته . فجلده دبغت يا ذلة وصلوها . أما صاحب الحصان الذي لم يفعل شيئا في حياته سوى تخفيض حياة من حوله بكثرة وعيوبه وفلسفته وغريزته ، فحيا يموت بصرخ أعلى لا على قرائه . إنما من ظلمات كآبته وعجزه وحزازته ودقته . وبعد أن تتوارى جثته في التراب ، لا يستفيد أحد لا من جثته ولا من عمله ولا من عظامه ، كما يقول تولستوي بصدد مأساوي . فالحصان رغم ذلك كان مصيره في الحياة والموت أفضل من مصير سيده .

ثم تذهب القلم وارمي بأعباء على المكتب . وراقص أن يجري ويلقي فوق الورق حروفا من أن تموت كالحصان . فواضع تولستوي فكرة قصته في درج مكتبه . وتركها تختمر فيه أربعة وعشرين سنة . فلم يكتبها إلا في عام ١٨٨٥ . واكتفى بمراجعة روايته « الحرب » .

تافه ولكن عبقري !

وبراعته الفائقة في إلقاء الضوء على خبيء ، حيال سونيا مسكونة بكتمة قلبه . ونسي أنه منذ سنين لم يكتب شيئا ، وأنه كم حيرة قلبه بعد زواجه . وقلمه معذور . وهو أيضا . فكيف يكتب وظل سونيا لا يفارق خده ، وأنفاسها فوق أنفاسه . إنه عاش طوال حياته في أسى وحشته . لا صديق له ولا أنيس سوى نفسه . والآن تشاركه حياته امرأة تشد حريته . وتقتل فكره . وتفجع خياله . وبنه وبينها أميال تفل الثالثة ، التي تعلو وترتفع كلما تقدمت في حملها . إنها لا تكف عن التأفف والتأوه والتململ . فإذا لاذ بحجرة مكتبه . لم يتنح شيئا لتوعده . لأنه لم يمت كقلمه الورق . وإذا حمل بندقيته على كتفه ، وخرج مع كلابه ليصطاد ، لتهمه بأنه يحب كلابه ولا يحبها . ومن يعلم فربما ودت أن تكون كلبة لتجري بين رجليه . وتراقد تحت قدميه في البيت وفي الغيط . وإذا لأخر في العودة إليها تنظره وجيبا على زجاج النافذة ، والدموع على خدودها ، والشكوى على لسانها .

وإذا جلس إلى حوارها تسهل كلمة منه . وإذا أشفق عليها ورمى لها كلمة حلوة ، يتوقف زمانها كأنه هو أول لحظة في وجودها . إنها تتطاول في حبه ، وتعيش به وله . وهو سعيد بذلك ، ويريدها أن تكون له بكل كيانها ، بشرط ألا يكون هو لها . يريد أن يعيش معها بشرط أن يظل وحده مع وحشته . ويريدها أن تكون وفيرا فرو الزمان ورتابة الأيام بشرط ألا تضجره رتابة ذلك أفعالها ولسانها . . باختصار يريدها أن تكون دائما إلى جواره بشرط ألا يحس بوجودها !

ويا ويل من يحب امرأة ويتزوجها . هي تخنق تحت قدميها ، وهو يختنق تحت جلده . وأسأل الروح ولا تسأل العذاب . إنه على يقين من أن موهبته وعبقريته وذكاءه وذكائه سوف تذوب في هذا الجو الزوجي الخانق . وصرخ قلمه

« ٣٠ يونيه ١٨٦٣ : أين ذاتي ؟ أين هو هذا (الأنا) الذي كنت أحبه وأعرفه . . فاذوا ما يتبقى جزء الآن . ويتشرق الخارج بخلائق رهيبة وفرحة . إني تافه وصغير وحقير . والأدهى والأمر أني أصبحت كذلك منذ تزوجت امرأة أحبها . معظم ما كتبته في هذه الكوارث كذب وزيف . فكرة أنها ما تزال هنا . تقرأ من فوق كتفي ما أكتبه . تقيدني وتخنق خلقيتي . لأنه أن أضيف بضع كلمات هنا ، لأنها مطرأها . شيء بشع ورهيب أن يربط الإنسان سعادته بظروف مادية : زوجة وأطفال وصحة ومال .

وقرأت سونيا هذه السطور الموجهة لها . واندلعت نيران الثورة في دمها . وحاصرت نفسها أحشاءها . وخاف حينما أن يموت حرفا قبل أن يولد . وتحسس طريقه وسط الظلمات . وفرق بعض ثلج الحياة . ووجه الأرض . وتسحبات لتداله . وانتفضت . وأحبت سونيا تولستوي أربع عشرة مرة في يوم ٢٢ يونيه . وسماه « مسيح » على اسم عمه .

لماذا هذا التقتيل ؟ من هو ؟ من أين جاء ؟ ؟ أسئلة تولد مع كل مولود . وتموت من غير جواب . وانتفض تولستوي . لأنه لا يحس لا بالسعادة ولا بالتعاسة لكونه أصبح أبا . إنما يحس فقط بالخوف . فظهور هذا الطفل ظهرت في حياته « منطقة خطر جديدة » تهدد حريته وقلمه وعمله . إن ابنه هم جديد . وعقل جديد . يضاف إلى همومه وانشغالاته . فهل الورقة الوحيدة في بيلاده أن سونيا مشتغل به . فيهمله . فيزاح من طغيان حبها . وهو على استعداد لأن تحبه حب العادة إذا كانت مواجباتها كأم على خير وجه . وأين واجبات الأم أن ترضع طفلها بنفسها ، وسونيا تزيده في هذا الرأي ، وهو أنه في الوسط الأرستقراطي الذي نشأت فيه ، جرت العادة أن تترك الأم هذه المهمة لمرضعة .

وتعاد عادت سونيا طفلها بين أحضان . ثم ظهرت تشققات في حلمتي ثديها . فحبها آلام مريعة عند الرضاعة . وبناء على أمر طبيبها توقفت عن رضاعة طفلها . وباسم الطبيعة ، وباسم الفيلسوف روسو ومبادئه . ثار تولستوي على زوجته . وعلى طبيبها الذي يتصيح بحجج واهية . فمع أنها من أن تؤدي واجبها . أمن نهب الحياة نهب لبنها . حتى لو أدى ذلك إلى فطامها . وسيلان دموعها مع سيلان لبنها . وحينما أحضرت سونيا مرضعة رفض تولستوي أن يدخل حجرة الطفل حتى لا يرى ابنه يرضع منها . معتقدا في صدر امرأة غريبة . « لا لا تقدر الكونتسة تولستوي على القيام بما تقوم به فلاحة من بنات الشعب ؟

ويحير كاتبنا سونيا قبلها . فهي تريد أن تستمع بمباهج الأمومة . وتعيش في سلام ولو مرة في حياتها الزوجية . وأصر زوجها على مواصلة شن الهجوم عليها . فاضطرت إلى الدفاع عن نفسها . لكونها تموت غيظا . وبيأس أيها . وتدخلت ثانية أختها التي جاءت لقضاء أيام معها . وأخفقت في فض الاشتباك . وتصاعد القتال على جبهة الرضاعة . ووصلت أخبار المعارك إلى موسكو . وقام الدكتور جوز على روح ابنته . وإصراره الأحمق على إرضاعها على شيء لا تقدر صحيا عليه . وكتب إلى الزوجين . أنت تجنون . وأنت أيضا تجنون : سونيا يا صديقتي العزيزة كوني عاقلة كما عرفتك دائما . اهدئي يا ابنتي . كل مشكلة ولها حل . لا تهولي الأمور . وتعملي من الحبة قبة . أما أنت يا صديق العزيز تموت بكولا يفتش ، فأكد أن تكونك تختلف عن تكوين الثلاج . طبيعتك تختلف عنه . ومهما قلت وفعلت فلن تصبح أبدا فلاحا . واعرف أن زوجتك أيضا تحكم تكوينها وطبيعتها أن تتحمل أبدا ما تتحمله الفلاحة . وأنت يا ابنتي . لا تقارني أحمالك اخفضي خطة ، واشكينا كلما تصرفت بحماقة . واصنعي ليون على رأسه ماء بليغ تحت يديك . كي يتعلم أن يكون أكثر ذكاء .

إنه أستاذ في الأدب والكلام . أما في الحياة فهذا شيء آخر .

فيكتب قصة يهذب فيها زوج زوجته المريضة ويرغمها على رضاعة طفلها . وسوف ترحمه كل النساء بالطبع .

ولكن لا خطاب حبه . ولا دموع سونيا . ولا توبيخات تانيا الرقيقة . فلجأت في إجهاد ثورته الحمقاء . وأصبح لا يرى زوجته من غير أن يرى فيها كل عيوب الدنيا . وكل يوميائه التي تقرأها أجاثا ، الكونتسة ، ليقيظها . وكتب يقلمه البغاث .

« ٥ أغسطس ١٨٦٣ : في الصباح أوجه إلى الكونتسة ، والفرحة في عيني ، والابتسامة فوق شفتي . وأجدها تجلس أمام المرآة ، ودوبياشا وصيفتها تسرح لها شعرها .

ترائي قطيفي خفان . ثم فجأة تصرخ في وجه دوبياشا ، وبلا سبب تنهال عليها ضربا وشتما . وبالشاكم للصدى أنا هيما . فأسحب ومعي الطبق . انهارت أحلامي . انتهى كل شيء . أخاف من كل شيء . يبدو أن لا سعادة في الإ في الوحشة .

ولا شاعرية في حياتي إلا وأنا وحدي مع نفسي . الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل . أريد أن أنام ولا أستطيع . صدري يضيق ويضيق . أختنق . أود أن أذهب إلى حيرتها . وأنام إلى جوارها . إنها الآن تحلم وتشخر بهدوء . ولكنها إذا أحست في شوقي لتسقط بفرحة . لأن أذل معها . وسوف تغرق بدموع أبيها . وتشكو من قلبي لها وتعاستها معي . والأمر أني يجب أن أبكت . وأعرس . وأعملها .

وسونيا من ناحيتها لا يسكت قلبها . وينكلم ويصرخ . ويقول :

« ٧ أغسطس ١٨٦٣ : من جديد أتحمى دموع الرضاعة . الأم التي لا ترضع طفلها وحش بلا قلب . وتستحق الموت . من قال العكس ؟ . ولكن ما العمل إذا كانت هناك استحالة جسدية . إنه يريد أن يتحول من على وجه الأرض . لأني أتعذب . ولأني لا أقوم بواجبي . وأنا لا أطيقه لأنه يتعذب . ولأنه يكتب . أمن الممكن أن كتب لعبا يلقدها ؟ . أمن الممكن أن كتب قبابة لا تكف عن أقحتا ؟ . سأرعى ابني . وأفعل من أجله المستحيل . لا لسواد عيني ليوفوشكا الذي يستحق أقل شرة بالشر . إنما لأني أحب ابني .

ثم يح صوت قلمها . فأراحته حتى نهاية السطر . فانظر من نفسه إلى السطر التالي . وتاب حمرة خدا . وراح يقطر عسلا .

« انظر بتساقط . أخشى أن يصاب بالبرد . لم أعد قادرة عليه . أحبه . فليحفظه الله . »

وتتجرد أن قرأ تولستوي هذه السطور . انقلب حاله . واعتدل مزاجه . وذاب عناده . وطرد دمه ميكروب الحقد الأسود . وتلدى فيزياميات الحب الأحمر . وكتب على هامش الصفحة في يوميات زوجته :

« سونيا ملاكي . كنت حقا جافيا . ومع من ؟ . مع أمر مخلوقة لدي في الدنيا . مع من أعطتني السعادة التي لم أكن أحلم بها . مع من تحيى بكل كيانها . سونيا . حبيبتي ! . أنا مذنب . ولكني أيضا بائس . بداخل رجل طيب . أحبه ولا أطيقه . حتى إذا تحاملت .

ولكن الأدبية طبع . والطبع أغلب . وذيل الكلب لا يعتدل أبدا . والزوج الشكس يموت وهو يشاكس زوجته . وهذا كس تولستوي سونيا في نفس اللحظة . وهل شطب السطور التي كتبها . فكتبت سونيا تحتها :

« كنت أستحق هذه السطور التي تقيض حنانا وودا . ولكنه في لحظة غضب شطبها . قبل أن أقرأها .

ولحث تولستوي على أي شيء ليتحجج به ويهرب من بيته وعزلته وروسيا بأكملها . وينظر إلى حريطة العالم . ويرأى نيران الثورة مشتعلة في بولندا . فرصة لا تعوض . إلى الأمام سر . سيتطوع . ويحمل السلاح . ويقمع الثورة . ولكن هذه الثورة قامت من أجل الحرية التي يعتنقها . وضد الدكتاتورية التي يحبذها . لا يهم . إنه على استعداد لأن يقتل كل أحرار بولندا . بل كل أحرار العالم . من أجل أن يهرب من سونيا . ومواد عين سونيا .

واحتفظ بسره في صدره . حتى يرسم بدقة خطة هروبه .

فاحتفظ . فصدره منذ كان جنينا في بطن أمه لم يحتفظ بسر واحد . ما العمل ؟ . أن يبوح بسره لصديقه الكونت الشاعر « أفاناسي فت » . . وهذا ما حدث . أما يومياته فلم يقل فيها شيئا .

أهو عيط يفضح نفسه بنفسه ؟ ولمن ؟ . لزوجته حبيبته اللدود ، التي يريد أن تموت حبا بين ذراعيه . بل التي من أجلها يريد أن يدافع عن كل حكم ذكاتوري في الكون . ليتخلص من سجن عينيها وذراعيها .

بل الآن أن يقنع سونيا بحبه وبضعه لها . وقراره العظيم بأن يقدي الدكتاتورية بدمه . ويسبح دم الجريمات . ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها .